

البنية السردية في رواية عمالقة الشمال

لنجيب الكيلاني

(دراسة علاقات الشخصيات)

الشريف حيلة ، مكلف بالدروس

المركز الجامعي العربي التبسي

Résumé :

*Structure narrative du roman (les géants du nord)
de nadjib elkilani
(Étude des relations des personnages)*

Cette article est l'étude structurale qui critique les relations des personnages au niveau du texte romanesque sous titré : 'Les géants du nord ' écrit par nadjib elkilani, on employons

La méthode de tzivane todorove, dans laquelle il divise le roman en (Histoire et discours). C'est pour cela on a commencé par décrire les termes histoire et discours pour découvrir le monde du roman, et ainsi les personnages et leurs relations. En deuxième partie nous avons sectionné le texte sous forme d'unités, on distinguant les unités centrales, sur lesquelles la structure narrative se base.

Ses unités sont la base d'étude des relations des personnages. ces dernières se construits en deux modes : Les relations sentimentales et les relations religieuses .et l'axe de celle-ci est l'héros Atman amino qui est d'après le récit l'élément le plus dominant ,c'est pourquoi il le prend comme axe afin de produire le monde fictionnel du roman.

Les relations décrites représentent une structure simpliste exprime une autre structure plus profonde se dévoile au niveau sémantique.

Une telle étude est une critique du texte narratif utilisée uniquement pour les relations des personnages comme elle est au niveau linguistique ainsi au niveau sémantique.

ملخص :

الدراسة هي محاولة إضاءة البنية السردية لرواية عمالقة الشمال للكاتب نجيب الكيلاني مرتكزة على علاقات الشخصيات فيما بينها مستخدمة مقولات تودوروف في دراسة السرد الروائي، والتي تدرس الرواية على أنها قصة و خطاب. لذا كانت الخطوة الأولى هي تحديد مفهوم مصطلحي القصة و الخطاب، و آليات دراستها لتكون المفتاح الذي نلج به عالم الرواية، كما تمنحنا فرصة التعرف على شخصياتها ، وهي تمارس علاقاتها بنويًا.

وهكذا جاءت المرحلة الثانية للدراسة حيث قسمت الرواية إلى مقاطع مميزة أهم الوحدات التي تركز عليها البنية السردية، و على أساسها درست علاقات الشخصيات إذ كشفت الدراسة أنها نوعين علاقات عاطفية، وعلاقات عقدية ، محورها بالبطل عثمان أمينو ، الذي يتخذ السرد عنصرا مهيمنا ينسج حوله عالمه المتخيل، و يربط العناصر الروائية بعضها ببعض، و لا تكون هذه العلاقات سوى بنية سطحية تعبر عن بنية أعمق ، نكتشفها في المستوى الدلالي ، كما هي موضحة في الخاتمة.

إن دراسة كهذه هي مقارنة نص سردي تعمل على عنصر واحد هو العلاقات في تحليلها اللغوي ، ثم في تحليلها الدلالي ، تعري عالما متخفيا خلف اللغة، ليقوله النص بصريح الكلمات، إنما ينتجه القارئ و هو يتعاطى اللغة.

للسرد الروائي في مستواه الأعم مظهران : فهو قصة و خطاب في الوقت نفسه ، و هو قصة بمعنى أنه يثير أحداثا و شخصيات تقوم بهذه الأحداث التي يفترض أنها وقعت فعلا .

و هو خطاب أي يفترض ساردا يحكي القصة لقارئ يتلقاها ، وعلى هذا المستوى فليس المهم هو الأحداث المنقولة ، بل الكيفية التي نقلها بها إلينا السارد .

و يحدد الباحث (تريفيتان تودوروف) مفهوم القصة بقوله : " يعني عرضا تداوليا لما وقع ، فالقصة إذن موضوعة ، و هي لا توجد على مستوى الأحداث ذاتها ، فتقرير شرطي حول حادث يسير بالتحديد وفق معايير هذه الموضوعة ... بينما الكاتب الذي يستقي منها عقدة سرده يكتف جزئية بحيث أن التشويه الذي يقوم به الكاتب في عرضه الأحداث يواجه على التحديد هذه الموضوعة ، ولا يواجه الترتيب الزمني القصة تجريدا إذ أنها تدرك و تحكي دائما من طرف أحد ما و هي لا توجد في ذاتها" 1 .

فالقصة إذا هي حد ، تجريد ، عارض ، إنها نتيجة عملية طرح يقوم بها المحلل . إنها ما تبقى من حادث نقل إلينا بعيدا على أن تكون معطى ، إنها ببساطة ناتج عملية تشكيل .

و تتكون القصة كما ذكرنا من مجموعة الأحداث التي تقوم بها شخصيات تربط فيما بينها علاقات ، و تحفزهم حوافز تدفعهم إلى فعل ما تقوله و تقوم به .

و هذه الأحداث إنما هي أفعال تتوالى في السياق السردى تبعا لمنطق خاص يحكمها ، و يجعل وقوع بعضها مترتبا على وقوع البعض الآخر . و لما كانت تتوالى وفق منطق خاص ، و كانت الشخصيات القائمة بها مرتبطة بعلاقات فيما بينها تدفعهم لذلك حوافز ما ، فإن دراسة السرد الروائي من حيث هو قصة تعني في الواقع دراسة ما يأتي :

- ترابط الأحداث وفق منطق خاص بها .
- الحوافز التي تتحكم بالعلاقات بين الشخصيات و بمنطق الترابط بين الأفعال .
- الشخصيات و العلاقات التي تربط فيما بينها .

و ستكون هذه العناصر موضوع الدراسة نعمل على كشفها في رواية عمالقة الشمال لنجيب الكيلاني، من أجل الوصول إلى الدلالات التي تولدها العلاقات مع اعتماد الحوافز كمؤسس لها.

ملخص مقطعي للأحداث:

بعد قراءتنا لرواية عمالقة الشمال و الاطلاع على أحداثها يمكننا تقسيمها على هذا الأساس إلى خمسة مقاطع هي :

المقطع الأول:

دخول عثمان أمينو السنما و التقائه بجاماكا، ويشمل الفصول الأربعة الأولى⁽¹⁻²⁻³⁻⁴⁾ من الصفحة الخامسة إلى الصفحة الخامسة و الثلاثين.

المقطع الثاني :

ذهاب عثمان أمينو إلى الجنوب لدعوة الإيبو إلى الإسلام، ويشمل الفصول⁽⁵⁻⁶⁻⁷⁻⁸⁾ من الصفحة السادسة و الثلاثين إلى الصفحة الرابعة و السبعين.

المقطع الثالث:

دخول عثمان السجن، و معاناة جاماكا بعد إسلامها و يشمل الفصول⁽⁹⁻¹⁰⁻¹¹⁻¹²⁻¹³⁻¹⁴⁻¹⁵⁻¹⁶⁾ من الصفحة الخامسة و السبعين إلى الصفحة مائة و واحد و أربعين.

المقطع الرابع:

خروج عثمان من السجن و بحثه عن جاماكا، ويشمل الفصول⁽¹⁷⁻¹⁸⁻¹⁹⁻²⁰⁾ من الصفحة مائة و سبعة و ثلاثين إلى الصفحة تسعة و ستين و مائة.

المقطع الخامس :

مشاركة عثمان في الحرب الأهلية و زواجه من جاماكا، ويشمل الفصلين⁽²¹⁻²²⁾ من الصفحة التاسعة و ستين و مائة إلى آخر صفحة.

هذه الأحداث هي الأحداث الأساسية التي تمثل محاور القصة في الرواية تجمع في طياتها أحداثا أخرى هي بمثابة وسائط بين هذه الوظائف حسب رأي (بارت)².
و تحتوي هذه الأحداث على أفعال فنية، استلزمها الفعل الروائي من أجل انبناء عناصر الرواية. لأن هناك أحداثا أخرى تاريخية في مقابل تلك ذات الطابع الفني لتكون الفضاء الذي تتحرك فيه الأحداث الفنية في المتخيل، و يمكن إجمالها كما يلي:

- المقطع الأول: إصلاحات الزعيم أحمد بيللو.
- المقطع الثاني: حدوث انقلاب عسكري، واغتيال الزعيم أحمد بيللو.
- المقطع الثالث : مظاهرات احتجاجية من طرف المسلمين، و حدوث انقلاب عسكري آخر ضد الأول.

- المقطع الرابع: انفصال الإقليم الشرقي عن الدولة الأم.

- المقطع الخامس: الحرب الأهلية بين الدولة، والإقليم الشرقي.

إن تقسيم الرواية إلى خمس مقاطع، تم على أساس بناء الأحداث كما ذكرنا، فأثناء قراءتنا للرواية وجدنا الراوي و هو يروي الأحداث إنما يحددها بإمكانتها التي وقعت فيها، فكانت بذلك موزعة على رقعة جغرافية مختارة بعناية من طرف الكاتب. فلما كان الراوي يروي بضمير المتكلم فيما يشبه السيرة الذاتية، فقد اختار الأحداث و الأمكنة التي كان هو نفسه شاهدا عليها أو مشاركاً فيها، و التي مكنت الفعل الروائي من الانبناء، ومنحته فضاء مقسما تقسيما محددًا بحسب ترتيبها. و من ثم كانت المقاطع خاضعة لهذا التقسيم، و لحركة الراوي عبر الحيز المكاني الذي هو نيجيريا.

تبدأ أحداث المقطع الأول عندما يخرج الراوي من بيته، و ينتقل بين أحياء المدينة، فعندما ينتقل إلى العاصمة و يتغير المكان لا تستمر الأحداث بنفس الوتيرة، بل تنمو و تتطور إلى أعلى مستوى، و تتخذ مساراً جديداً لا ينفصل عن المسار الأول، لكنه

يتجاوزها ليكشف لنا أشياء أخرى جديدة. هكذا يبدأ المقطع الثاني، الشيء ذاته يقال عن المقطع الثالث، فعندما يقتال الزعيم المسلم أحمدو بيللو يعود الراوي إلى الشمال و يدخل السجن، الذي يتحول إلى بؤرة توتر تنتج عنها أحداثا جديدة تعلن عن المقطع الثالث.

و تستمر الرواية على هذا التخطيط الذي رسمته حركة الراوي البطل حتى النهاية، فكلما انتقل إلى مكان بدأت أحداث جديدة هي نتيجة لسابقتها، لذلك جاء تقسيمنا على هذا المنوال المذكور.

غير أننا نجد المقطع الثالث يحتوي على أحداث لا ترتبط كما أشرنا بمكان محدد، وإنما تأتي مرتبطة بالشخصية التي تكون محورها، و تكون بذلك قصة داخل قصة، هي قصة جاماكا أو أحداث جاماكا التي تكشف للقارئ تطور و نمو هذه الشخصية، لكن حضورها في الرواية لا يكون إلا على لسان الراوي و هو في السجن على شكل أخبار. يتتبع الكاتب حيلة فنية من أجل إصاها إلى القارئ و دمجها في البناء الروائي، تمثلت في الرسائل التي كانت تبعث بها جاماكا إلى عثمان و هو في السجن.

علاقات الشخصيات فيما بينها:

تقوم الرواية (عمالة الشمال) على ست شخصيات ينسج السرد من خلالها العلاقات التي تربط بينها، وتنقسم هذه العلاقات إلى محورين أساسيين ينمو بهما الفعل الروائي.

- المحور الأول يقوم على العلاقات العاطفية.

- المحور الثاني يقوم على العلاقات الدينية.

و الشخصيات هي: عثمان أمينو، جاماكا، نور، عبد الرحيم، الشيخ عبد الله، الأب توم. إلى جانب شخصيات أخرى وردت في القصة مبهمة لا أسماء لها و لا صوت، لا تؤدي دورا فاعلا، وبالتالي لا علاقة لها فاعلة.

أولاً- رصد العلاقات العاطفية:

في هذا المحور تقوم شخصيات: عثمان أمينو ، جاماكا، كعنصر تنسج من خلالهما العلاقات العاطفية، لذلك سنحاول رصدها ،ونبدأ بجاماكا التي أحبت عثمان حين رآته في السنما لأول مرة لتصبح لدينا أول علاقة حافزها الرغبة .

1- جاماكا تحب عثمان:

يبدو الحافز هنا حافز رغبة متمثل في شكل الحب، إذا نظرنا إليه في اتجاهه من جاماكا إلى عثمان وجدناه حافزا إيجابيا نشطا، يجد في مقابله حافزا ساكنا هو الاستقبال عند عثمان أمينو ،لكن هذا الاستقبال ليس دلالة على القبول وإنما على الوصول، لا يكون نشطا كنظيره، بل بالعكس يبدو سلبيا لرفض هذا الأخير حب جاماكا، و ينشأ عنده حافزا عكسيا هو الكره.

2- عثمان يكره جاماكا:

نكون في هذه العلاقة أمام حافز سلبي نشط هو الكره الذاهب من عثمان باتجاه جاماكا، ليجد في مقابله حافز الاستقبال عند جاماكا،الذي يعني الوصول، تواجهه بالرفض إذ لا تقبل الكره الذي لم تجد له مبررا من وجهة نظرها، فتعمل على الاستمرار في محاولاتها المتكررة لاستمالة قلب عثمان ليحبها و يبادلها الحافز نفسه، إنها تسعى لخلق حافز الرغبة في الطرف الآخر لهذه العلاقة، تعمل على تحويل حافز الكره عنده. تذهب إلى بيته و تعلن حبها: "شيء ما يشدني إليك"³.

لكن الحافز الذي يرسله عثمان باتجاهها لا يتغير ،حينئذ فقط تذهب إلى نور و تسر له بمكنونها طالبة منه المساعدة.

3- جاماكا تسر لنور:

من خلال كلام نور وهو يخبر عثمان بحب جاماكا، نعلم أنها قد أسرت له بذلك الحب، فنور صديقها كما هو صديق (عثمان)، لذلك أسرت له بمكنونها الخاص المتعلق بمصير حبها لعثمان.

و بهذه العلاقة نكون أمام حافز إيجابي نشط هو حافز التواصل الذاهب من جاماكا نحو نور ، الذي يحاول نقل رسالة جاماكا إلى عثمان أمينو أي أنه يقوم بدور المساعد، تتمثل المساعدة في إيصال الحب إلى هدفه. بمعنى آخر أن نور يقوم بمساعدة الفاعل طالب الحب على الحصول على موضوعه، الذي هو اللقاء أو الزواج.

4- نور يساعد جاماكا/ نور يساعد عثمان:

نجد هذا الحافز حقيقيا فعلا إيجابيا أو هكذا يبدو، يقابله حافزان واحد عند عثمان و الآخر لدى جاماكا، تتكون من خلاله العلاقة بين نور و عثمان و بين نور و جاماكا. وتكون الأولى نتيجة تلقائية للثانية ،ويعد موضوع الزواج العامل المساعد على ذلك، لكن حافز المشاركة باتجاه عثمان يجد استقبالا هو الرفض، يرفض حبها و يتهرب منه ، فهو مسلم داعية إلى الله و هي مسيحية سافرة، هو من الهوسا وهي من الإيبو و بين القبيلتين عدا، هو من الشمال المسلم وهي من الشرق الوثني، لذلك يرفض ما يقوم به نور، ويطلب منه التوقف عن محاولاته.

بينما يجد هذا الحافز (المشاركة) باتجاه جاماكا استقبالا بالقبول، بل إنها هي التي تخول لنور ذلك، وتحاول كسر كل الحواجز من أجل الوصول إلى الهدف، و البحث عن كل وسيلة كفيلة بتحقيق رغبتها. هكذا يكون نور الشخصية التي تتكفل تقنيا بالبوح، و تمكن الراوي تقنيا من اطلاعنا على سرائر جاماكا و ما تنوي فعله، فنور هو الوساطة الفنية التي تسمعنا ما تقوله جاماكا لنفسها، إذ يمكن السرد من نقل الصامت عندها إلى

المسموع. وهكذا لا يكون نور وساطة بين جاماكا و عثمان فقط، بل بين القارئ و الراوي أيضا.

و في ضوء تحليل هذه العلاقة يكون نور ذا وظيفة بارزة في الرواية، أو ما أسماه النقاد بمصطلح الفصل في بنية هيكل القصة، به تتحقق حركة من حركات السرد، وبه ينتقل الراوي من الحكى عن علاقة إلى الحكى عن علاقة أخرى.

و عندما يدخل عثمان السجن يحدث تغير في علاقته بجاماكا نكشفه فيما يأتي:

5- عثمان يحب سعيدة (جاماكا):

تبدأ هذه العلاقة بسيطة، تنمو بنمو شخصية جاماكا إلى أن تتحول من علاقة كراهية إلى علاقة حب، فيعرف الحافز الأول (الكره) تحولا على مستوى هويته، انطلاقا من جاماكا نفسها، التي كانت تبحث عن وسائل تقربها من عثمان. تشهد عندما يدخل السجن نموا على مستوى التصور و الاعتقاد، سببه توصلها إلى الحقيقة حقيقة الإسلام، وهي تبحث عن حل لمشكلتها العاطفية، التي يتوقف عليها مصير حبها لعثمان، فتعلن إسلامها و تخبر حبيبها عند زيارتها له في سجنه: "لقد درست...وسمعت...و سألت... ووجدت إجابات شافية لكل ما أريد...لهذا آمنت...كنت أنت السبب"⁴.

يحدث هذا الخبر تغيرا جذريا في الحافز المتجه من عثمان نحو جاماكا التي أصبحت تسمى سعيدة، لينتقل من حافز الكراهية إلى حافز الرغبة التي يحكمها الحب، بعد زوال العوائق القديمة المعيقة لتحقيقه، تمنعه من بلوغ هدفه. فنسمع عثمان يقول لها: "أجل سنتزوج عندما يفك الله أساري"⁵.

تكون هذه الإجابة إعلانا عن تحول المحمول الأول و هو حب جاماكا لعثمان إلى المطاوعة، فيتحقق أيضا حب عثمان لجاماكا (سعيدة) فنقول أن عثمان يحب سعيدة.

عندما تبعث سعيدة(جاماكا)* برسالة لعثمان في السجن، تخبره فيها بتصرفات نور معها، هنا يكشف السرد عن علاقة جديدة بين نور و جاماكا(سعيدة) هي علاقة الحب.

6- نور يحب سعيدة (جاماكا):

تبدو العلاقة هنا ظاهرة منذ البداية لا كما هي على حقيقتها تبعا لطبيعة نور الغريبة المضطربة. في البداية كان يمثل عاملا مساعدا على تحقيق محمول الحب بين جاماكا و عثمان، لكن بدخول عثمان السجن يتحول حافز المساعدة إلى حافز الحب. فقد كان كما تخبر عنه سعيدة يتوهم أنها تحبه منذ أن عرفته قبل أن تلتق بعثمان، نظرا لما يلاقيه منها من عطف. لكن السرد لا يكشف عن هذه العلاقة إلا أثناء تواجده عثمان في السجن، ويحكي لنا عن تحولات هذا الحافز من مجرد حافز بسيط غير نشط إلى حافز نشط، كما يظهر في الظاهر حين دخل صديقه السجن، فيعلن لها عن حبه: "جاماكا.. أنا أحبك"⁶.

و سبب عدم ظهوره في البداية هو أن حافز الحب بين (عثمان) و جاماكا لم يتحقق بعد، بسبب رفض عثمان اللقاء من أساسه..، فلم يجد السرد الوساطة التي بها يخبرنا بمكنون (نور)، مثل ما حدث مع جاماكا، لما جعل السرد من نور وساطة للإخبار عن دواخلها و خلجات نفسها، فظهور هذه العلاقة كان متوقفا على تحقق علاقة الحب بين عثمان و جاماكا.

إذ يتجه حافز الرغبة المتمثل في الحب و الذهاب من نور باتجاه سعيدة و هو حافز نشط لكنه لا يتخذ الشكل الأبرز له الذي هو الحب، فنور يرغب في سعيدة، ورغم إسارها لها بحبه لا يكشف ذلك عن حب حقيقي في الرواية، و باتجاهه نحو سعيدة يجد استقبالا بالرفض: "أنت آخر من يصلح لكي يكون زوجا"⁷.

وليس سبب هذا الرفض كشف المحمول لظاهر الحب على مستوى الوعي و الإدراك لدى سعيدة التي عرفت حقيقته. إنما لكون حافز الرغبة المتجه منها إلى عثمان يمثل قوة معيقة أمام تحقق حافز الرغبة المتجه من نور تجاه سعيدة: "كل ما في الأمر أنني أحبه و لا أحد غيره"⁸. و تقصد بكلامها عثمان.

أمام هذا الرفض يعمل نور على إفشال علاقة سعيدة بعثمان القائمة على رغبة الحب، فيفشي سرها للسلطات الحاكمة متهما إياها بالتجسس لصالح عثمان أمينو عشيقها.

7- نور يفشي سر سعيدة:

إن حافز إفشاء السر الذاهب من نور إلى سعيدة، هو حافز سلبي يقوم به نور كنتيجة لاستقبال سعيدة حبه لها بالرفض، فيطراً تحول على علاقته بها، إذ يظهر زيف حافز الرغبة المبني على الحب محور علاقته بها. فيتحول إلى حافز ثان معاكس، يكشف علاقته بسعيدة المتمثلة في حافز الكره السلبي، يعمل على إعاقة وإفشال علاقة الحب بين سعيدة و عثمان، فلا يترك لسعيدة خياراً، فتستقبل هذا الكره بكره مماثل له.

8- سعيدة تكره نور:

أمام الاتهامات الموجهة لسعيدة من قبل نور في التحقيق، يتكون عندها حافز جديد، نتيجة لحافز الكره الموجه إليها من طرف نور، وهو حافز سلبي نشط يقابله حافز سلبي عند الأول. هكذا تشهد هذه العلاقة تطوراً ونمواً من البداية حتى النهاية.

و نلاحظ أن التحول الذي يدخل عليها سببه الحافز السلبي الذاهب من نور نحو سعيدة. يعني ذلك أن السبب في تغير العلاقة ليست سعيدة إنما هو خارج عنها، يتحدد في نور نفسه، ويتعدى التغير علاقة نور بسعيدة ليشمل علاقته بعثمان أيضاً، نتيجة للهدف الذي أصبح يسعى إليه كانتقام لشخصه. وهو إفشال علاقة الحب بين سعيدة و عثمان، فيكشف لنا السرد عن علاقة أخرى قائمة على حافز الكره هي :

9 - نور يكره عثمان أمينو:

بعد فشل نور في كسب عواطف سعيدة، وبعد التعرض لها، انتقل إلى عثمان يشي به لدى السلطات ليرمي به في السجن. هنا يظهر السرد مرة أخرى أن نور كان من أسباب دخول عثمان السجن، من أجل إبعاده عن سعيدة، لتصبح أمام حافز قوي نشط هو كره

نور لعثمان، يظهر ذلك في قوله لسعيدة عسى أن يبعتها عنه: >> تعلمين يا جاماكا، أنه سجين و مستقبله مظلّم و هو إنسان مغلق، أورثه التعصب للدين ضيقا في الأفق<<⁹. يسير هذا الحافز السلبي في حركة ذاهبة من نور إلى عثمان ليستقبله هذا الأخير بالحافز نفسه، أي الكره ، فينتج علاقة جديدة هي:

10- عثمان يكره نور:

ما يمكن قوله عن هذه العلاقة هو ما قلناه عن علاقة سعيدة تكره نور، فالحافز سلبي و نشط في الوقت ذاته، يتجه من عثمان نحو نور، ولا يكون سلبيّا كنظيره المتجه من نور إلى عثمان ، يتجلى في الممارسة ، بل يكون نابعا من طبيعة الشخصية ، لا يتعدى المشاعر إلى الممارسة الفعلية ، إلا في لحظات معينة، ثم تتلاشى حدته.

هكذا تتحول علاقة نور بسعيدة و عثمان الحكومة بحافز المشاركة المتمثل في المساعدة إلى علاقة إعاقة محكومة بحافز الإعاقة المضاد . ونرصد هذا التحول القائم على الضدية فيما يأتي:

في البداية :- علاقة نور بجاماكا (سعيدة) هي (المساعدة).

- علاقة نور بعثمان هي (المساعدة).

بعد التحول: - علاقة نور بسعيدة(جاماكا) هي (الإعاقة).

- علاقة نور بعثمان هي (الإعاقة).

و بذلك نلاحظ أن المحور الأول ينهض على العلاقات، التي موضوعها العاطفة (الحب، الكره) على الإعاقة و المساعدة.

ثانيا- رصد العلاقات الدينية:

يقوم المحور الثاني على العلاقات الدينية، التي ينسجها السرد بين شخصيات كل من : عثمان أمينو ، نور ، الشيخ، عبد الله، عبد الرحيم ، الأب توم . وتعد شخصية عثمان هي

المحور الذي تبني عليه كل العلاقات ،ومن تم سنحاول رصد العلاقات التي تقوم بينه و بين باقي الشخصيات في رواية عمالقة الشمال.

1- نور يسر لعثمان:

تتحرك هذه العلاقة بحافز التواصل هو الإسرار، إسرار نور لعثمان، وهو كما يبدو حافز إيجابي. يخبر نور عثمان بما آلت إليه حاله النفسية و المادية، و يطلب منه المساعدة خاصة المادية . يستقبل عثمان الحافز، يدفعه للبحث عن مساعدة يقدمها لصديقه، فنكون أمام علاقة هي:

2- عثمان يساعد نور:

يقوم عثمان في هذه العلاقة بحافز المشاركة المتمثلة في المساعدة ، يتحقق في محاولته مساعدة نور. وتكون المحاولة نابعة من طبيعة الوظيفة التي يقوم بها عثمان وهي الإصلاح. يدرس حال صديقه المترامي في براثن الشهوات و الملذات، التي ذهبت بماله و كانت سببا في طرده من العمل ، فيأول إلى الإفلاس. يعمل عثمان على الإصلاح من وضعه، و إعادته إلى الطريق المستقيم، يتحرك الحافز باتجاه نور على هذا الخط المرسوم من قبل الشخصية المساعدة.

لكن الحافز بهذه الصورة لا يجد حين وصوله إلى نور استقبالا إيجابيا، لأن هذا الأخير إنما يبحث عن العمل من أجل المال فقط، ومع ذلك يواصل عثمان سعيه. تستمر العلاقة إلى أن ينجح بعض الشيء في إصلاحه ما أمكن. لكن نور و بمجرد أن وجد رغبته تتحقق في مساندة الحاكم تخلي عن صديقه، ونقل كل أسرار ه. هنا تتطور العلاقة عندما يدرك عثمان حقيقة علاقة نور بالسلطات، فيتحول حافز المساعدة إلى حافز الكره.

3- عثمان يكره نور:

إن العلاقة القائمة على حافز الكره بين عثمان و نور في هذا المحور، رغم تشابهها مع العلاقة التي تربط بينهما في المحور الأول ، فإنها ليست هي . ذلك أن طبيعتها و موضوعها يختلفان، و بذلك يكون كره عثمان لنور مزدوج.

بعد هذا التوضيح نعود لنقول أن حافز الكره المتجه من عثمان إلى نور لا يعد سلبيا، لاكتشاف الأول خيانة الثاني و موالاته للسلطات الحاكمة، التي كانت سببا في دخوله السجن، مما أدى إلى تحول الحافز، الذي قامت عليه العلاقة بينهما من حافز إيجابي ممثل في المساعدة إلى حافز سلبى ممثل في الكره العميق لاستمرار العلاقة الأولى.

ثم علاقة:

4- عثمان أمينو يسر إلى الشيخ عبد الله:

إن عثمان بوصفه داعية إلى الله تعرض لعدة فتن و هزات اعترضت طريقه ، و أثرت على إيمانه سلبا، كلما و اجهته . لذلك نجده يلجأ عند كل هزة إلى شيخه عبد الله ، و يسر له بالضعف الروحي الذي ينتابه طالبا المساعدة الروحية و المعنوية: >> سيدي و إمامي في القلب حاجات و فيك فطانة<<¹⁰.

يتجه حافز التواصل من عثمان و يصل إلى الشيخ عبد الله ، يكون نشطا يستقبل بالنشاط ذاته، إذ يقبل الشيخ مساعدته لأنه الأب الروحي لعثمان، فهو شيخ الطريقة في المنطقة ، و من هذه النقطة بالذات تتشكل علاقة الشيخ بعثمان.

5 - الشيخ عبد الله يساعد عثمان أمينو:

يسير حافز المشاركة في صورة المساعدة من الشيخ عبد الله باتجاه عثمان، و يكون في ذروة نشاطه جد فعال . إذ يسيطر على مستقبله الذي يسير في الخط المرسوم من طرف الشيخ:>> أخلع نعليك ... و انزع ... طاقيتك و انظر إلى السماء و اهتف

سبحان الله... والحمد لله، ولا إله إلا الله، ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم>>¹¹.

>>... إذا نزلت يا عثمان في أحراش اليوروبا... وظلمات الإيبو... فابعث بكلمات الله في كل مكان و أدعو البشر هناك إلى عبادة الواحد... و قل لهم كونوا اخوة... و حطموا الأصنام الجديدة... أطلق كلماتك في الصحراء.. في الغابات... في المناجم... في المصانع و لا تخش إلا الله.. وليس من المكتوب هروب.. و لو اجتمع أهل السماء و الأرض على أن يضروك بشيء لن يضروك إلا بشيء قد كتبه الله لك>>¹².

و ما كان من عثمان إلا أن يتزل عند رغبة شيخه، ويعمل ما طلبه منه. تستمر العلاقة بينهما في هذا الخط المستقيم باتجاه واحد دون اضطراب أو تدبدب، يحكمها حافز التواصل و المساعدة حتى النهاية.

عندما يتجه عثمان الداعية صوب الجنوب لأداء واجبه الدعوي، يختار من أصدقائه عبد الرحيم ليكون له عوناً ، فنقف على علاقة أخرى هي:

6- عبد الرحيم يساعد عثمان:

يتكون الحافز هنا تلقائياً مباشرة من عثمان، تفرزه أحداث الرواية أثناء تواجد الشخصيتين في الجنوب. يتجه في شكل مساعدة من عبد الرحيم إلى عثمان. يمارس نشاطه في نقاط معينة، يحددها السرد عندما يريد أن يحكي لنا ما يجري داخل الحيز الضيق المتمثل في القرية المعزولة في الجنوب. فيتخذ من هذا الحافز وسيلة يطلعنا بها عن ذلك، به نعرف حادث الأفعى و محاولة قتل عثمان من طرف الأب توم، و إسلام كل القبيلة.

و أخيراً الذهاب إلى حيث توجد قبيلة سعيدة في الشرق و دعوتها إلى الإسلام. يدفع الحافز شخصية عبد الرحيم إلى المساعدة رغم سذاجتها و بساطتها، إذ تحكم تدخلاته التلقائية السائرة وفق أحداث الرواية.

عندما يصل عثمان إلى الجنوب و بمجرد دخوله إحدى قرى الإيبو يواجه أحد المبشرين يدعى الأب توم، فتنشأ علاقة جديدة يكون عثمان طرفا فيها ينهض بها حافز الكره.

7- عثمان يكره الأب توم:

يستجه هذا الحفز السلبي الكره من عثمان صوب الأب توم، ويكون نشطا . يبدو من أول وهلة أن سببه عثمان الحاقد على توم، لأنه ينافسه و يقف عائقا في طريقه الدعوي، لكن الملاحظ لسلوك توم القائم على الإقصاء و التصفية الجسدية، يرى أن عثمان لا ذنب له و أن سبب هذه العلاقة السلبية القائمة على الكره هو الأب توم ، ومن ثم تكون أمام علاقة :

8 - الأب توم يكره عثمان الداعية المسلم:

إن هذه العلاقة ليست نتيجة لعلاقة (عثمان يكره توم) و إنما العكس فهي سبب قيام هذه الأخيرة، لكون توم السبب الأول في حافز الكره. و يكون الحافز الذي تقوم عليه حافزا سلبيا، أفرزته شخصية توم المبشر القائمة أساسا على الحقد، يقابله حافز مماثل عند عثمان لا كما هو، بل من أجل الدفاع عن الدعوة التي يقوم بها، بما يتمكن السرد من نقل ما يجري داخل القرية. و تشكل هاتان العلاقتان القائمتان على حافز الكره عاملا سلبيا. تكون كل واحدة منهما بمثابة عائق لعمل الشخصيتين عثمان الداعية إلى الإسلام و توم المبشر.

برصد هذه العلاقات يتضح لنا المحوران الأساسيان اللذان يقوم عليهما الفعل الروائي، وبهما ينمو. يبدوان في البداية أهما سيران في خطين متوازيين لا تربطهما ببعضهما أية صلة. لكن الوظيفة التي تمارسها شخصية عثمان تجعله الجسر الذي يربط المحورين في تقاطع أفقي ، فعثمان من ناحية رجل ،إنسان تحكمه عواطف تتأثر بمن حولها، و بما يجري حولها، يحب و يكره، و على هذا الأساس يؤسس المحور الأول علاقته، وحوافز

هذه العلاقات هي حوافز تتراوح بين الإيجاب و السلب، إيجابية بين عثمان و جاماكا، وسلبية بينهما و بين نور.

و عثمان من ناحية ثانية رجل دعوة، تربطه بمن حوله روابط عقدية على أساسها قامت علاقات المحور الثاني. وهي مبنية على حافزي المشاركة (المساعدة) و الكره، تكون إيجابية بين عثمان و الشيخ عبد الله و عبد الرحيم، وسلبية في علاقة عثمان بنور و توم. إن المحورين متساويان تقريبا في عدد علاقاتهما، فالمحور الأول يتكون من عشر علاقات، و الثاني من ثماني علاقات. لذلك نقول أنهما محوران رئيسان في القصة، يشكلان مساحة الفعل السردى داخل الرواية ككل. ففي هذا الفضاء تقيم الشخصيات علاقاتهما. و من خلالهما أيضا ينمو الفعل الروائي، بفعل الخلخلة التي تتعرض لها بنته، و التي يحدثها نور في المحور الأول عندما يعمل على إعاقه تحقق العلاقة بين عثمان و سعيدة، و ما يقوم به، إلى جانب توم في المحور الثاني أثناء محاولته إعاقه شخصية عثمان عن أداء وظيفتها كداعية.

و نخلص في النهاية إلى القول أن العلاقات تتلخص من حيث الفعالية في نوعين من الحوافز : حوافز إيجابية، و حوافز سلبية أي تقوم على ثنائية ضدية مشحونة بالصدام و هي تتحرك. يتخلخل بفعلها الفعل الروائي ليشكل البنية الكلية للقصة في نمو مستمر حتى نهاية الرواية.

المستوى الدلالي لعلاقات الشخصيات:

قبل أن نتعرض للكشف عن دلالات العلاقات التي تم رصدتها، كان علينا أن ننظر في الترابط الدلالي بين نجاح المحورين، إذ انتهت رواية عمالقة الشمال بنجاح المحورين معا، زواج عثمان بسعيدة، و نجاح فعل الدعوة من خلال تحقق وحدة نيجيريا.

إن العلاقات في المحور الأول القائمة على حافز الحب و الكره، حافز إيجابي و الآخر سلبى، تتحول بفعل تطور الشخصيات نفسها و نموها من مجرد دلالات سطحية بسيطة

إلى دلالات ذات أبعاد رمزية، يكشفها الحافز الأول وهو يحاول إعاقه الحافز الثاني، يمنعه من التحقق، فتحدث خلخلة داخل السرد، و يتحول نور إلى وسيط سلبي يحاول منع اللقاء بين عثمان و سعيدة، يبدأ متخفياً ، لا كما على الظاهر يعريه السرد و هو يحكي عنه، فنكشف حقيقته ، ليظهر نور الحب المساعد ممتلئ بالكره و الحقد.

تكسر هذه الخلخلة المسار الأفقي للسرد، فتجعله يعلو و يدنو.. تتحول معها دلالات العلاقات، و الشخصيات معا، يتحول حافز الرغبة المتمثل في عاطفة الحب بين سعيدة و عثمان، التي تسعى في حركة سريعة إلى تحقيق هدفها الزواج، يوهما الحافز الثاني المتشكل في المساعد بأنه يسير معها في الاتجاه نفسه، و يعمل على دفعها نحو الهدف، يفاجئها في نقطة حاسمة من السرد ، إذ يحاول إيقافها ليصير حافزا معيقا هو الكره، يعمل في اتجاه معاكس لاتجاهها. هنا تأخذ العلاقات مستوا ثان من الدلالات، فيصبح الحب رغبة في تحقيق الوحدة ، وحدة نيجيريا التي يمثل عثمان و سعيدة طرفاها عثمان الشمال و سعيدة الشرق، وتصير علاقة الكره التي يمثلها نور سببها الرئيس اليد الخفية للعدو الذي يعمل على مستويات مختلفة، من أجل تخطيط الوطن، وتكريس الفرقة و الصراع بين قبائله.

تتقاطع خطوط العلاقات و تتشابك لتصل بالفعل الروائي إلى ذروته، ثم تتخذ في النهاية حركة واحدة، يكشف عنها السرد هي حركة علاقة الحب الرامزة للوحدة ، بعد أن تقضي الأحداث على حركة الكره بالهزام الأعداء، فتتوقف صيرورتها، ليجد حافز الحب طريقه إلى التحقق في شكل الزواج ، زواج عثمان الشمال و سعيدة الشرق : <<سعيدة و عثمان رمز نيجيريا الواحدة>>¹³.

أما المحور الثاني فيقوم على حافزي المشاركة المتمثلة في المساعدة، مساعدة كل من الشيخ عبد الله و عبد الرحيم لعثمان ، و نتيجة لحافز التواصل المتجه من عثمان نحو الشيخ، ثم عبد الرحيم بطريقة غير مباشرة نحو الثاني ، و الحافز الموالي الذي يقوم عليه

الخور الثاني هو حافر الكره سببه الرئيس الأب توم، يدفعه لإعاقة عثمان عن أداء وظيفته. هكذا نكون أمام حافزين واحد سلمي و الآخر إيجابي.

و العلاقات العقدية على عكس العاطفية، تعرف التصادم منذ البداية. يقدمها السرد علاقة الكره بين عثمان و الأب توم مكشوفة مباشرة، تعمل على مستوى الظاهر في اتجاه عكسي كعامل معيق لنظيرتها المساعدة، وحين يلتقي حافر المساعد بالحافر المعارض (الكره) يبدأ الفعل الروائي، يختل نظامه ليحكي لنا الراوي أحداثاً تبين التحول الدلالي للعلاقات، فعندما يلجأ عثمان إلى شيخه يطلب المساعدة، ثم يلتقي بعبد الرحيم، و يتلقى منه مساعدة مادية، هنا يظهر الحافر المتجه من عثمان نحو توم الأب من أجل أداء وظيفة الدعوة و هي تبليغ الإسلام للإيو الوثنيين، فيتحول حافر المساعدة إلى رمز يدل على الإسلام يسعى إلى الانتشار في أكبر مساحة ممكنة. وفي سعيه يصطدم بحافر نقیض على مستوى الممارسة، هو حافر الكره (المعارضة) الممارس من قبل توم الأب المبشر، يرسله باتجاه عثمان.

وتكون هذه العلاقة و هي تحاول أن تتحقق في إعاقة العلاقة الأولى رمز التبشير المسيحي، الذي يسعى للهدف ذاته أي الانتشار في أكبر مساحة من نيجيريا. يحاول إعاقة الإسلام بالتصادم و الاغتيال منذ البداية، وليس بالحوار. لأن الأب توم في حقيقته جندي في جلاب رجل دين، تدخل العلاقتان (الحافزان) في صراع محاولة كل منهما إعاقة الأخرى، فتصنعان مساراً ثان للفعل الروائي إلى جانب المسار الأول الذي صنعه العلاقات العاطفية، تدفعه إلى النمو في حركة مضطربة. و كنتيجة لممارسات توم السلبية تنكشف حقيقة التبشير المتحلية في حافر الكره، يتوقف هذا الحافر تاركاً مجال التحقق لحافر المساعدة، ليسير في خط مستقيم نحو هدفه الذي يتحقق في إسلام جميع أفراد القرية: <<وقف الرعيم و قال بصوت أجش: أيها الأبناء لقد قررت أن أعتنق دين هذين الرجلين.. قفا... ورددوا الكلمات المقدسة>>¹⁴.

و تتركز دلالات كل العلاقات في شخصية الراوي البطل عثمان أمينو الداعية إلى الله، الجندي العامل من أجل وحدة وطنه، حينما ينسج السرد انطلاقاً منه العلاقات، وحينما يمارس هو نفسه أفعاله، يعمل داعية، ينشر الإسلام، ويحارب جندياً يسعى لتحقيق وحدة وطنه نيجيريا، دون أن ينس أن بداخله قلب ينبض بالحب .

خاتمة القول:

بعد دراستنا لرواية عمالقة الشمال لكاتبها نجيب الكيلاني محاولين الكشف عن بنيته السردية، و بالتحديد علاقات الشخصيات فيما بينها انطلاقاً من الرؤية التي وضعها (تزييفان تودورف)، نخلص إلى القول: أن علاقات الشخصيات فيما بينها في القصة، تقوم على حوافز إيجابية و أخرى سلبية، لتعطينا في الأخير ثنائية ضدية هي ثنائية (السلب و الإيجاب) هذه الثنائية هي التي تنهض عليها حركة الفعل الروائي على المستوى الفني، انطلاقاً من الصراع الذي تصنعه الشخصيات فيما بينها، الآخذ في النمو حتى نهاية الرواية، دافعا الفعل الروائي إلى التشكل في صورته النهائية.

هذه الثنائية (السلب و الإيجاب) هي التي تكشف عن المستوى الدلالي ، الوعي الذي تقوم عليه الرواية، و هو الصراع المتكون من أطراف متناقضة تتخذ هي الأخرى شكل ثنائيات ضدية:

- الإسلام/المسيحية

- الوطن/الاستعمار

- الدعوة/التبشير

- قبائل الهوسا/قبائل الإيبو

و تكون الشخصيات هي نقطة التقاطع بين المستويين، عندما ينسج السرد العلاقات، هذا التقاطع يقدم لنا كقراء الشكل النهائي للقصة، إلى جانب الأحداث في رواية عمالقة الشمال.

و هكذا نقول أن بنية علاقات الشخصيات تقوم على ثنائية ضدية هي السلب و الإيجاب، تتخذ خطين متقاطعين: خط أفقي و خط عمودي، الأول يمثل المستوى الفني و الثاني يمثل المستوى الدلالي.

الهوامش:

- 1 — تزيان تودوروف، مقولات السرد الأدبي ترجمة الحسين سحبان و فؤاد صفا، طرائق تحليل السرد الأدبي منشورات اتحاد كتاب المغرب 1/1992 ص42.
- 2 — مارك بوفارت ، الخطاب و القصة، مدخل إلى السيميولوجيا ترجمة عبد الحميد بورايو ديوان المطبوعات الجامعية 1995، ص48.
- 3 — نجيب الكيلاني، عمالقة الشمال، دار النفاس بيروت، ط6/1979 ص33.
- 4 — المصدر نفسه، ص100.
- 5 — المصدر نفسه، ص102.
- استعمال اسم جاماكا تارة و سعيدة تارة أخرى مقصود للدلالة على زمن التحول في هذه الشخصية.
- 6 — المصدر نفسه، ص131.
- 7 — المصدر نفسه ، ص132.
- 8 — المصدر نفسه، ص131.
- 9 — المصدر نفسه، ص131.
- 10 — المصدر نفسه ، ص14.
- 11 — المصدر نفسه ، ص15.
- 12 — المصدر نفسه ، ص24.
- 13 — المصدر نفسه ، ص184.
- 14 — المصدر نفسه ، ص83.